من آيات الله
فى النحل

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

إن المتأمل فى مشاهد الحيوان من الدواب والطير، يجد عجائب تدل على ما ورائها من قدرة الله الباهرة فى الخلق والتركيب، وأن كل شئ فى الوجود ينقاد إليه، وكأن لكل شئ زماماً بيده، الإنسان فى الأرض، والملائكةُ والأفلاكُ فى السماء، والطير فى الهواء. يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] فكل من فى السموات من الملائكة، يسبح له طوعاً، وكل من فى الأرض يسبح له اختياراً، وتسبيح الطير له تسخيراً وانقياداً، ودالةً على حكمته، إذ هى منقادةٌ له، طائعة بخلقها، ويصرفها كما يشاء، ولسان حالها ناطق بتنزيه الله، شاهد بكمال قدرته، وأنه ليس كمثله شئ. وما من طائر إلا ويدل على خفيات القدرة الإلهية المبدعة.

وإذا وقف الإنسان أمام أحوال مخلوق صغير من مخلوقات الله، رأى عجباً يشد الانتباه؛ إنه النحل هذا المخلوق الصغير بجسمه، الكبير بهمته، ونظام حياته.

إن أحواله كلها لما تثير التأمل، وتستدعى التفكر؛ فمن ذا الذى جَبَل فى هذه المخلوقات الصغيرة، النشيطة، الدائبة الحركة، غريزة التجمع المفيد؟ من الذى ألهمها هذا النظام الدقيق الذى تعيش به جماعاتها، وتنتظم فيه أسرابها ؟حتى

غدت تتخذ من الجبال أكناناً لها، وتضعُ فيها عسلها الذى فيه شفاء للناس؟؟ إنه الله الذى ألهمها هذه القدرات، وأودع فيها هذه الطاقات.

قال تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النحل**﴾ والإيحاءُ إلى النحل إلهامُها، والقذف فى قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيلَ لأحد الوقوفَ عليه، وأحوالها دلائل بينة شاهدة، على أن الله أودعها علماً وفطنة. كما أولىِ الألباب عقولهم.

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحى تعمل بمقتضاه، وهى تعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل المفكر، سواء فى بناء خلاياها، أو فى تقسيم العمل بينها، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى.

وهى تتخذ بيوتها- حسب فطرتها- فى الجبال، والشجر، ومما يعرشون، أى ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق.

والنص على أن العسل فيه شفاء للناس هو ثابت بمجرد نص القرآن عليه، وهكذا يجب أن يعتقد المسلم إستناداً إلى الحق الكلى الثابت فى كتاب الله.

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه.

فقال له رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً».

فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقا، قال رسول الله ﷺ: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

قال بعض علماء الطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت فى الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابى أن هذا

يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام، ببركة إشارته - صلى الله عليه وسلم - عليه من ربه.

يقول صاحب الظلال: ويروعنا فى هذا الآثر يقينُ الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعاً عملياً، من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه، وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له فى النهاية.

وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية، وبكل حقيقة، وردت فى كتاب الله، مهما بدا فى ظاهر الأمر أن يسمى الواقع يخالفها، فهى أصدق من ذلك الواقع الظاهرى، الذى يثنى فى النهاية ليصدقها.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن» وهناك أحاديث أخرى يشير فيها الرسول ﷺ إلى العسل كدواء وشفاء.

قال تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون**﴾ وسميت أعشاش النحل بيوتاً لأنها قائمة على نظام دقيق بديع، تحكمه هندسة دقيقة بارعة، يحار فيها عقل الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿**ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ هو معطوف على ما قبله، أى مما ألهمهُ الله سبحانه وتعالى النحل، وجعله طبيعةً قائمة فيها، أن يكون طعامها من زهرِ الزروع وثمارِها. والتقدير: وأوحى ربك إلى جماعة النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً، ثم كلى من كل الثمرات.

وفى توجيه الأمر إلى النحل فى قوله تعالى: ﴿**أن اتخذى من الجبال بيوتا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ثم كلى من كل الثمرات**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فاسلكى سبل ربك ذللا**﴾

فى هذا الأمر إشارة إلى أن الوحى الصادر إلى النحل، ليس أمراً تكليفياً، وإنما هو أمر تقديرى.

ليس للنحل معه تفكير أو تدبير، بل هو أشبه بجهاز عامل فى كيان النحل، أو قل هو الجهاز العامل فى كيانه.

والأمر الموجه إلى النحل بأن يسلك سبل ربه ذُلُلاً. هو إذنٌ من الخالق جل وعلا للنحل أن ينطلق على طبيعته، وأن يسير على ما توجهه إليه غريزته، حيث لا تتصادم هذه الغريزة بشئ غريب يَدْخُلُ عليها من إرادة أو تفكير.

فالسبل التى تسلكها النحل فى بناء بيوتها، وفى تناول طعامها، وفى الشراب الذى تخرجه من بطونها، كل ذلك يجرى على سننٍ مستقيم لا ينحرف أبداً، ويسير فى طريق معبد مذلل، هو طريق لله، وهو فطرة الله.

وقوله تعالى: ﴿**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه**﴾ هو جواب عن سؤال يقع فى الخاطر، حين يستمع المرء إلى كلمات الله سبحانه وتعالى عن النحل، وعن وحيه إليه، وأمرِه لَهُ. فيلفته ذلك كله إلى النحل، وإلى أن يسأل نفسه، ما شأن هذا النحل؟ وما الرسالة التى يؤديها هذا المخلوق الضئيل؟ فيكون الجواب: ﴿**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه**﴾ يتلون بلون الغذاء الذى يتناوله، أما ثمرة هذه الرسالة، وأثرها فى الحياة، فذلك ما كشف عنه قوله تعالى: ﴿**فيه شفاء للناس**﴾.

إن هذا كله يدفع الإنسان إلى التفكير فى أمر هذا النحل، وفى ما وراء أفق النحل، ولذا كان فى كل هذا آية لقوم يتفكرون.

* * *